أردوغان يغذي الصراع الليبي ويتجاهل ارتداداته

محمد أبوالفضل
كاتب مصري

يواصل الرئيس التركي رجب طيب أردوغان انخراطه في حروب وصراعات ويقوم بتحرشات إقليمية دون أن يحقق انتصارا حاسما، ويصر على مواصلة هذا الطريق بعيدا عن انعكاساته المادية والمعنوية على شعبه الذي تعالت أصواته لرفض مغامراته في ليبيا، والتي يمكن أن تتحول إلى مستنقع يكبّدُ الدولة خسائر باهظة قد تستمر معها لعقود طويلة.

كم من الوقت استغرقته الدول التي غزا قادتها دولا أخرى خلال الحقبة الاستعمارية لمحو جرائمها، وكيف ارتدّت تبعات هذه الجرائم على أجيال كل ذنبها أنها انتمت إلى دول حكمها ساسة وجنرالات متغطرسون، خاضوا معارك وأشعلوا أخرى، ومنحوا النزاعات وقودا وفيرا؟

كان حكم التاريخ رحيما أحيانا على هؤلاء، لأنهم تماشوا مع طبيعة مرحلة عرفت القوة كسبيل وحيد للهيمنة، ولم تكن هناك قوانين كافية للردع والمحاسبة، وتصادمت الطموحات والمشروعات فأدت إلى سباق محموم للسيطرة على مناطق النفوذ، واستخدمت أدوات غير أخلاقية لم تترك لأصحابها درجة للتعاطف معهم من قبل الشعوب المُعتدى عليها.

انتهت هذه المرحلة بكل طقوسها وشرورها، وبقيت حالات استعمار نادرة حتى الآن لا يستطيع أحد التفاخر بها أو الدفاع عنها، لأن هناك أنظمة للمحاسبة حتى ولو لم يتم تفعيلها أو خضعت لحسابات دقيقة ومعقدة، تجعل سيف العقاب مرفوعا في وجه دول وراقدا مع أخرى.

لم ترحم هذه المعطيات الولايات المتحدة كأكبر دولة انخرطت في عديد من الصراعات حول العالم، من أن تلقى لوما سياسيا جارفا على هذه التصرفات التي أنفقت فيها تريليونات من الدولارات في العقدين الأخيرين، بينما لم تخض الصين حربا واحدة فحققت تقدما باهرا.

انجرف أردوغان وراء نزواته وأحلامه الأيديولوجية في المنطقة، وذهب بعيدا من أجل إثبات أنه سلطان قادر على إعادة سيرة أجداده الملطخة بدماء الشعوب العربية، لم ينتبه الرجل للفروق الجوهرية في الأزمنة والأمكنة والأجواء، ولم توقفه المطبات التي تعرض لها في العراق، والخسائر التي تكبدها في سوريا، حتى جاءت محطة ليبيا التي تقف شاهدة على حجم الغرور الذي انتاب رئيس تجاهل الجغرافيا السياسية وضوابطها.

تلعب أنقرة دوما على تناقضات فجة تعتمل في دول تشتبك معها، فلم تكن تدخلات جيشها في العراق سافرة عندما كانت تحكمه قيادة صارمة، ولم يلجأ أردوغان إلى نشر قواته في سوريا وقت أن كانت قيادتها متماسكة، فقط استغل الترهل الذي أصابها وتعدد اللاعبين على أرضها ودفع بقواته وحواريه من المتطرفين والإرهابيين، وكذلك يفعل في ليبيا.

القاهرة تعلم أن تمكن أنقرة من التمركز العسكري في الفناء الخلفي الليبي يخرق أحد أهم الثوابت الإستراتيجية في المنطقة المتعلقة بالتهديد المباشر، ويحمل معه تجاعيد حادة في المستقبل

انخرطت تركيا في حروب عدة، وأخفقت في كسب أي منها أو تثبيت قواعدها الخلفية في إحدى الدول، ربما مهدت بعض القوى الطرق واستفادت منها، لكن وجودها يخضع للمسموح والممنوع والخطوط الحمر المرسومة التي لا تستطيع أنقرة تجاوزها، وإذا حدث وغرّها الفراغ السياسي والأمني على التقدم عادت إلى سيرتها الأولى. هي معادلة محكومة بأهداف تكتيكية تتطلب ازدواجية مؤقتة تتناسب مع حجم السيولة في التوازنات الدولية.

ما يعتبره البعض بمثابة تواطؤ أو تحالف روسي وأميركي مع تركيا في كل من سوريا وليبيا، يمكن أن ينقلب إلى فخ. فالفضاء الذي يسبح فيه أردوغان ويغريه على قطع مسافات كبيرة فيه يتم تحديد معالمه سلفا، وهو ما أغفلته تركيا في البلدين وجعلها تقع في أخطاء قاتلة، فالدور الذي تقوم به يحتمل الوفاق والصدام معا، ولأنها تفقد البوصلة أحيانا فلن تتمكن من التفرقة الدقيقة بينهما، حتى وقعت في خلافات مع كل من موسكو وواشنطن، رممت بعضها وظلت شبحا قابلا للانفجار.

يحرص أردوغان على تذويب الهوة مع كل منهما، حتى لو أبدى غير ذلك، فبعد تصعيد لافت للنظر يحرص على إتقانه يعود وينحني ويرضخ لسقف مرتفع من المطالب، وتأتي تصرفات مريبة لكل من روسيا والولايات المتحدة لتعزز فرضية التفاهم على قواعد اللعبة فتتمكن تركيا من مواصلة دورها على مسرحي سوريا وليبيا.

جرى الحديث كثيرا عن مفردات اللعبة وأصولها في سوريا، وهناك فصول لم تتكشف بعد فيها، لكنها في ليبيا تبدو مختلفة، من حيث المكونات والأهداف والمصالح والتهديدات، ناهيك عن الجغرافيا التي يجب الانتباه إلى أهميتها، كعنصر حاسم في تحديد المدى الذي يمكن أن تصل إليه تصورات أنقرة.

حقق فريق أردوغان في ليبيا، المكوّن من حكومة الوفاق في طرابلس ومرتزقة ومتطرفين وإرهابيين وميليشيات مسلحة، تقدما مؤقتا في الغرب الشهر الماضي، ما لبث أن تحول إلى كابوس الآن، بعد أن نجح الجيش الوطني الليبي بقيادة المشير خليفة حفتر في ترتيب أوراقه العسكرية بدقة، وقام باستدارة يمكن أن تدفع أنقرة تكاليفها، فقد اعتقدت أن مسرح العمليات مهيّأ أمامها، وتمادت في دفع معداتها وعناصرها عن طريق البحر والجو والبر.

قلب الدور التركي الكثير من التوازنات الهشة في ليبيا، وكاد يرجح كفة فريق على آخر، ومكنّه التفوق الذي أحرزه فريقه في الغرب من خلال غياب الأطر الدولية الحاكمة للأزمة من زيادة سرعة الدعم دون أن يعبأ بخروقات نوعية، متصورا أن انشغال الدول الإقليمية الرئيسية بمكافحة فايروس كورونا أو حذرها سيمكنه من تكريس وجوده.

تضع مصر ليبيا ضمن قمة أولوياتها في الدفاع عن أمنها القومي، وتعلن قيادتها على الدوام أنها تقف في صف الجيش الليبي وقائده المشير خليفة حفتر، وترى ضرورة ملحة في كسر شوكة الإرهابيين، وتشير من وقت لآخر، إلى أنها مع الحلول السياسية للأزمة، لكن ذلك لا يعني انتفاء الخيارات العسكرية مطلقا إذا وجدت تركيا أو غيرها تهدد مصالحها.

تعلم القاهرة أن تمكن أنقرة من التمركز العسكري في الفناء الخلفي الليبي يخرق أحد أهم الثوابت الإستراتيجية في المنطقة المتعلقة بالتهديد المباشر، ويحمل معه تجاعيد حادة في المستقبل، ولذلك لن تسمح بهذا الخرق بأي حال من الأحوال، فالأهداف التي أخفقت تركيا في تحقيقها بالأساليب السياسية عبر احتضان القوى الإسلاموية تريد تحقيقها بالأدوات العسكرية. وهذه أشد خطورة على ليبيا ومصر والمنطقة برمتها.

تعلم القيادة المصرية جيدا أن ليبيا بالنسبة لتركيا وسيلة وليست غاية تنطلق منها إلى دول الجوار، شرقا وغربا وجنوبا. الأمر الذي يصعب التهاون معه، لأن المشكلة لم تعد في نقل متشددين مؤدلجين ومرتزقة، فهؤلاء واجهة فقط، لكنها تخص مصير منطقة برمتها، من يتمكن من تحديد خطوطها ورسم خارطتها يستطيع السيطرة عليها. ووجود نفوذ لأنقرة في دولة رخوة مثل ليبيا يندرج ضمن المعادلة الصفرية، بمعنى لابد أن تتفوق دولة على أخرى بالضربة القاضية، بعد أن فقدت سياسة تسجيل النقاط مفعولها.

تدير القاهرة أزماتها بقدر عال من الحكمة والتريث، وهي الطريقة التي مكنتها من تخطي جبال من المشكلات في الداخل والخارج خلال السنوات السبع الماضية، والقيادة التي تمكنت من تحويل الاستهداف لها إلى تحالف مع بعض القوى ليس من السهل خداعها والتسليم بوجود نفوذ لتركيا على مقربة من أبوابها الغربية، ما يشي بأن ليبيا سوف تكون هي المعركة الأشد حساسية التي تنتصر مصر الحديثة أو تنكسر فيها، ويتجاهل أردوغان ارتداداتها.

طرابلس الرهان الأخير للإخوان

الحبيب الأسود
كاتب تونسي

كل أنظار الإخوان في المنطقة والعالم منصبة حاليا على غرب ليبيا، وكل أصواتهم وأقلامهم وأبواقهم وجيوشهم الإلكترونية مجندة لقلب الحقائق، وإظهار الجيش الوطني الليبي في صورة المعتدي الآثم، والميليشيات الإرهابية في صورة القوة الوطنية المدافعة عن الحرية والديمقراطية ومقومات الدولة الوطنية، وتصوير الدخيل التركي على أنه نصير الشعب الليبي الذي لا يهمه إلا نصرة الدين والدفاع عن حقوق المضطهدين، ومرتزقته المستجلبين من شمال سوريا على أنهم مناضلون من أجل تحرير ليبيا من جيشها وشعبها.

كان الإخوان في العام 2011 ينظرون إلى ليبيا على أنها ستكون بيت مال الخلافة والرابطة بموقعها الجغرافي المؤثر بين مشرق الوطن العربي ومغربه، وساحلهم الممتد المفتوح على جنوب أوروبا، وبوابتهم المفتوحة على دول الساحل والصحراء وعموم القارة الأفريقية التي لا تخلو بدورها من فروع للجماعة، ولعل الجميع يذكر دعوة يوسف القرضاوي بعد يوم من مقتل معمر القذافي، إلى إعلان قيام اتحاد الجمهوريات الإسلامية بين مصر وليبيا وتونس، في انتظار التحاق بلدان أخرى بالركب.

ولكن بعد الإطاحة بحكم جماعة الإخوان في مصر في الثالث من يوليو 2013، أصبح هناك رهان آخر على ليبيا، وهو أن تتحول إلى خنجر في خاصرة مصر، لينطلق منها مشروع ضرب أرض الكنانة والثأر من شعبها الذي أطاح بالجماعة والجيش الذي سانده في ذلك، وتحول الشرق الليبي إلى ملجأ للإرهابيين من كل دول الجوار، وساحة للتآمر على الدولة المصرية، وكانت درنة، بالذات، منطلقا للإعداد لتشكيل ما سمي آنذاك بـ"الجيش المصري الحر" على غرار الجيش السوري الحر، بدعم قطري تركي لم تكن إيران بمعزل عنه، لكن إطلاق عملية الكرامة في منتصف مايو 2014 سارع بالقضاء على المشروع.

تحرر شرق ليبيا من الإرهاب وأسقط الجيش حسابات الإسلام السياسي في ماء البحر المتوسط، أو دفنها في الصحراء الشرقية، وقام في بداية العام الماضي لتحرير الجنوب، وانطلق في أبريل 2019 لتحرير العاصمة، وصادف أن تزامن ذلك مع إطاحة السودانيين بحكم الإخوان الذي كانت له أياد ملوثة بدماء الليبيين، فأصبح الرهان على منطقة غرب ليبيا مضاعفا، خصوصا وأن إقليم طرابلس مجاور لتونس الخاضعة بدورها لحكم الإخوان من خلال حركة النهضة الإسلامية، والتي لا يمكن فصلها اقتصاديا أو اجتماعيا عن جارتها الجنوبية الشرقية، وبات هناك يقين لدى الإخوان في العالم أن خسارة الحكم في مصر والسودان لا يجب أن يتدعم بخسارة النفوذ في ليبيا.

يعتقد إخوان تونس أن وصول الجيش الليبي إلى الحدود المشتركة قد يمثل خطرا على مصالحهم، خصوصا أن المزاج الشعبي التونسي وخاصة في مناطق الجنوب قد يتغير، وأن التعاون الاقتصادي والتجاري قد لا يعود إلى ما كان عليه سابقا أو حتى إلى ما هو عليه الآن، وهذا يعني أنهم سيتأثرون سلبيا باستبعاد الإسلاميين من حكم طرابلس.

بدوره يعتقد النظام التركي الذي أفسد علاقاته بأغلب الدول العربية وخاصة ذات الثقل الاقتصادي والاجتماعي والثقافي كمصر والسعودية والإمارات، أن سيطرة الجيش على ليبيا ستنهي أحلامه ببسط نفوذه عليها، وعلى قرارها السيادي وثرواتها، وستطيح بتطلعاته إلى نيل القسط الأكبر من صفقات مشاريع الإعمار والتبادل التجاري، وستجعله يخسر المجال الليبي سواء كان بحريا يختزن ثروات الغاز والنفط، أو صحراويا مفتوحا على دول الجوار الأفريقي.

أما قطر فلا تريد أن تفقد ما بقي لها من أطماع القيادة والريادة في مستوى دول ما سمي بالربيع العربي، خصوصا وأنها فشلت في سوريا، وانهزم مشروعها في مصر، وخرجت من اليمن تجر أذيال الخيبة، ووجدت في تونس قوى مدنية سياسية ونقابية منعتها من التغلغل في الدولة والمجتمع إلا بمقدار، ثم خسرت موقعها في السودان، ولم تبق لها إلا ليبيا التي طالما راهنت على أنها تجعل منها دولة تابعة بقيادة راضخة لأوامر ديوانها الأميري.

مع اقتراب الجيش الوطني من تحرير طرابلس، ارتفعت أصوات الإخوان محذرة من انهيار الجدار الأخير، وبدا واضحا أن الجماعة شعرت بالخطر وأدركت أن وصول المشير خليفة حفتر إلى قاعدة بوستة أو طريق السكة، يعني نهاية طموحات الجماعة في حكم ليبيا

مع اقتراب الجيش الوطني من تحرير طرابلس، ارتفعت أصوات الإخوان محذرة من انهيار الجدار الأخير، وبدا واضحا أن الجماعة شعرت بالخطر، وأدركت أن وصول المشير خليفة حفتر إلى قاعدة بوستة أو طريق السكة، يعني نهاية طموحات الجماعة في حكم ليبيا، كما يعني انتصار محور الاعتدال العربي الذي يناصبه الإخوان العداء، لذلك أعلنت الجماعة أن الحرب حربها سواء من خلال التدخل التركي الأردوغاني بالسلاح والمرتزقة، أو من خلال التدخل القطري بالمال والأبواق والمساومات السياسية، أو من خلال الحملات التي يقودها الإخوان في كل مكان ضد الجيش وداعميه، ومحاولة التأثير في الرأي العام الداخلي والخارجي بالافتراءات التي لم تعد تجد من يصدقها.

إن طرابلس اليوم هي الرهان الأخير للإخوان، وبتحريرها ستكون قوى الإسلام السياسي لا انهزمت فقط، وإنما عادت إلى حجمها الحقيقي. فالإسلاميون وإن كان لهم وجود في دولة كليبيا، فإنه لا يعطيهم شرعية الحكم، نظرا لضعف حضورهم، ورفضهم من قبل الأغلبية الساحقة من المجتمع، ولارتباطاتهم بمشاريع عابرة للحدود لا تضمن سيادة الدولة، ولا وطنية القرار، وكذلك لثبوت تورطهم في الإرهاب وهدر مقدرات البلاد والاستعانة بقوى خارجية لمقاتلة أبناء وطنهم.

يراهن الإخوان على طرابلس، وهم يجهلون أو يتجاهلون أن رهانهم مبني على حرب يخوضونها ضد الشعب الليبي بدعم من أطراف خارجية، ولذلك فلا أمل لهم في كسبها، وسيأتي اليوم الذي يتأكدون فيه من أن رهانهم خاسر، وطموحهم خائب، وأنّ لا القطري ولا التركي من يقرر مصير ليبيا، وإنما يقرره الشعب بإرادته الحرة وبدماء أبنائه الذين يقاتلون من أجل سيادة دولتهم وكرامة وطنهم ووحدة مجتمعهم وحماية مقدراتهم.

العرب
أول صحيفة عربية صدرت في لندن
1977 أسسها
أحمد الصالحين الهوني

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير المسؤول
د. هيثم الزبيدي

رئيس التحرير والمدير العام
محمد أحمد الهوني

مدراء التحرير
مختار الدبابي
كرم نعمة
حذام خريف
منى المحروقي

مدير النشر
علي قاسم

المدير الفني
سعيدة اليعقوبي

تصدر عن
Al-Arab Publishing House
المكتب الرئيسي (لندن)
The Quadrant
177 – 179 Hammersmith Road
London, W6 8BS, UK
Tel: (+44) 20 7602 3999
Fax: (+44) 20 7602 8778

للإعلان
Advertising Department
Tel: +44 20 8742 9262
ads@alarab.co.uk

www.alarab.co.uk
editor@alarab.co.uk